محاضرات فنيات التعبير الشفهي

مراحل العملية التعبيرية

تتكون العملية التعبيرية من عدة مراحل مهمة, يمكن تلخيصها في الآتي:

المرحلة الأولى: مرحلة تكوين الأفكار:

تعتبر هذه المرحلة هي أساس كل كلام, فلا يمكن للمتكلم أو المعبر أن ينشئ ما يريده دون تصور واضح للفكرة التي يريد التعبير عنها, فكلما وضحت عنده الفكرة سهل عليه تبليغها للمتلقي, فأول ما يجب على المخاطب إدراكه هو وضوح الفكرة عنده, وهذا يكون انطلاقا من تصور صحيح يكتسبه من مجموع المعارف المتحصلة عنده في بناء أفكاره, بناء يقوم عنده على أسس من العلم الصحيح, لأن الفكرة تبنى عند الإنسان على ما يدركه في حياته من الأشياء إدراكا جازما لا ينتابه في ذلك شك, فبقدر وضوح الفكرة وقوتها يسهل توضيحها وإيصالها إلى الآخر, ولا يمكن لمن بنى أفكاره على أسس هشة, وقواعد ضعيفة, أن يبلغ الغاية في تبليغها, والتأثير بها.

وفي هذا المقام لابد من الإشارة إلى مسألة مهمة تتعلق بمركز إنشاء الأفكار, فإن الأفكار الصحيحة لا تتكون إلا في الأذهان السليمة, وسلامة ذهن الإنسان وصحة تفكيره ترجع إلى أصل تكوينه, وطرق اكتساب معارفه, وأسلوب توظيف عقله, فلا يمكن للإنسان أن يكون فكرة صحيحة إلا إذا صح فكره, وسلم عقله, فإنه في الأصل سيوجه خطابه إلى ذوي العقول السليمة.

وقد يرى الإنسان في حياته مشاهد تعبير تخالف في ظاهرها ما أسلفنا الحديث عنه, فيخاطب الواحد منهم الآخرين بكلام لا يستقيم عقلا, ولكن الاستجابة تحدث منهم على الفور دون ارتباك, كقول أحدهم يخاطب غيره: (اقعد واقف), فيستجيب الآخر لقوله فلا يتحرك, وقول آخر يخاطب المسافرين في حافلة نقل: (تقدموا إلى الوراء), فيستجيب المسافرون متجهين إلى الوراء, ومثل هذا في حياة الناس كثير, ولا شك أن السبب في ذلك يرجع إلى المنظومة اللغوية الواحدة التي تكونت في عقول جماعة الناس هؤلاء, فتواضعوا على ذلك فيما بينهم, واتفقوا

دون انتباه منهم على قبول الخطأ والتجاوب معه, فأصبح التعبير بالخطأ يوافق ما استقر في أذهانهم, مع استعدادهم للتعامل معه على أساس صحته عندهم. ولا شك أن هذا الخلل إذا تجذر في ذهنيات الناس فهو ينعكس فيما بعد على حياتهم كلها, فتختل فيها موازين عيشهم وفق الخلل الذي تجذر في عقولهم, إذ يتحتم عليهم العيش بهذا الفكر المختل الذي يقبل التخاطب بالخطأ, ويتجاوب معه بكل تلقائية وانسيابية.

يعد الأعراب القدماء مرجعا أساسا في تقعيد قواعد العربية وتأصيل أصولها, والسبب في ذلك يرجع إلى صفاء عقولهم واستقامة تفكيرهم, وقد نقل علماء اللغة ذلك عنهم واشتهر في كتبهم, وعنهم رواه أهل العلم واعتمدوه في بحوثهم. " ذكر الطيبي, عن الأصمعي, قال: كنت أقرأ: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، وبجنبي أعرابي, فقال: كلام من هذا ؟ قلت: كلام الله. قال: ليس هذا كلام الله. فانتبهت, فقرأت: [وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ] [المائدة: 38]. فقال: أصبت, هذا كلام الله. فقلت: أتقرأ القرآن ؟ قال: لا. قلت: من أين علمت ؟ قال: يا هذا, عَزَّ, فَحَكَمَ, فَقَطَعَ, وَلَوْ غَفَرَ, وَرَحِمَ, لَمَا قَطَعَ "[1].

تعكس هذه القصة صفاء ذهن الأعرابي, واستقامة تفكيره, فلما سمع كلاما لا يتماشى مع ما استقر عنده تساءل عن مصدره, فلما أخبر بأن قائله هو الله عز وجل اعترض على ذلك وردَّه, لأنه لم يألف في كلام الله تعالى اختلالا ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ــ, لأن ما سمع يخالف صحة تركيب المعاني مع بعضها, فتعارض وتناقض عنده أول الكلام مع آخره, ولكنه حين وقع في سمعه القول الآخر, الذي تآلفت فيه المعاني مع بعضها سلم فيها أمره, وبين بعد ذلك علة اعتراضه أولا, وعلة تسليمه آخرا.

المرحلة الثانية: مرحلة التعبير عن الفكرة:

[1] ـ التحرير والتنوير, المعروف بـ(تفسير الطاهر بن عاشور), محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي, مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان, الطبعة: الأولى، 1420هـ/2000م, (2/ 265).

في هذه المرحلة يحتاج المتكلم أن يعرف شيئين مهمين, هما أساس عملية التعبير الشفهي, وعليه أن يدرك الفوارق المهمة بينهما.

أولا: أساليب وطرق التعبير.

ثانيا: وسائل وأدوات التعبير (الكلام).

تعتمد أساليب وطرق التعبير في الأساس على أصل الفكرة المراد تبليغها, فمن الناس من يسلك الطرق المباشرة في تبليغ أفكاره, لأنها تفرض نفسها بهذا الشكل الذي لا يحتمل تأجيل تبليغها, ومنهم من يسلك طرقا أخرى غير مباشرة بحسب غايته وهدفه من وراء ذلك. ويرجع أسلوب المتكلم وطرق تعبيره إلى أصل تكوينه اللغوي, كلٌّ بحسب رواسب معرفته, ومرجعية تكوين شخصيته.

وأهم عامل في اختيار أسلوب تبليغ الفكرة يرجع إلى تفاعل المتكلم مع مضمون فكرته وموضوعها, فإن كان مضمون الفكرة وموضوعها علمي, يهدف إلى إيصال علم إلى المتلقي, وجب على المتكلم أن يسلك طرق التعليم وأساليبه, وإن كان المضمون والموضوع توجيه أفعال المخاطبين وتحفيزهم على عمل معين, وجب اختيار أسلوب الخطابة التي تقنع الفكر وتؤجج المشاعر, وهكذا يختار كل إنسان أسلوبه الذي يعبر به بحسب تفاعله مع موضوع فكرته, ومراعاة الهدف الذي ينشده من وراء ذلك.

تعتبر وسيلة التعبير هي ذاك الثوب الذي تكتسيه المعاني حين تخرج من صاحبها وهو يريد إيصالها إلى من يتلقاها عنه, فيجب أن يكون اللفظ والتركيب المعبر به وفق مقاس المعنى المراد, لا يزيد عنه ولا ينقص, لكي يؤدي الدور المنوط به على الوجه المقصود.

وعلى المتكلم أن يختار اللفظ المناسب الذي يبرز خفايا المعاني المستقرة في ذهنه وهو يحاول إيصالها إلى من يخاطبه, ويجب عليه في ذلك مراعاة القاموس المشترك بينه وبين الآخر, فلا يخاطبه بما لا يعقل, فتختل عملية التواصل بينهما,

قال عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ τ: " حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُحِبُّونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ "[1].

طرق أخرى للتعبير عن الفكرة:

يمتلك الناس طرقا وأساليب أخرى غير شفهية تمكنهم من إيصال أفكارهم, والتعبير عن مشاعرهم, وهذا ما نجده عند الرسام والموسيقار, وإن كانا يشتركان مع الأديب والشاعر في تسمية كلٍّ منهم بالفنان, فكل واحد منهم يعبر بطريقته وأسلوبه الذي يختلف عن طريقة وأسلوب الآخر, مع اشتراكهم جميعا في صناعة فنهم داخل مصانع تشتغل بنظام واحد, ويختلف عن مصانع بقية عامة الناس.

يختلف الفنان عن بقية الناس في:

- رؤيته للشيء: فهو لا يرى الأشياء من نفس الزاوية التي يرى من خلالها عامة الناس, فتراها واقفا متأملا لشيء يمر عليه غيره, ولا يكاد يأبه به.
- انفعاله وتفاعله معه: تتفاعل مشاعره مع ما يحدث أمامه فيتأثر بقدر حسه المرهف, فيثور بركان عواطفه, فلا يخمد حتى يخرج ما في جعبته.
- تفاعل الشيء داخله: تتفاعل المشاعر داخله وتمتزج بخياله الخاص, فينتج عنها تصور وفق ذاك الخيال الذي لا يمكن توفره عند عامة الناس.
- إخراج تلك التفاعلات: تخرج انفعالاته وتفاعلاته وفق وسائل التعبير التي يمتلكها كل فنان, كل بحسب فنه, فتراها ألوانا عبر بها الرسام في لوحته, وألحانا عبر بها الموسيقار في معزوفته, وأدبا وأشعارا عبر به الأديب والشاعر في كلامه.

[1] ـ الجامع الصحيح المختصر, محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري, تحقيق: مصطفى ديب البغا, دار ابن كثير، اليمامة – بيروت, الطبعة الثالثة ، 1407ه – 1987م, (باب من خص بالعلم قوما دون قوم كراهية أن لا يفهموا), حديث رقم (127).